الباب الأول

السير على نهج التقليد المعرفي

Following the Cognitive Tradition

• ثلاثة تقاليد بحثية علمية رئيسة • المدرسة السلوكية وتعلم اللغة الثانية • المدرسة المعرفية واكتساب اللغة الثانية • نماذج معالجة المعلومات • الكفاية التواصلية والمقارنة التفاعلية

obeikandl.com

الفصل الأول

ثلاثة تقاليد بحثية علمية رئيسة
Three Major Scientific Research Traditions

أتحدثُ في هذا الفصل عن ثلاثة تقاليد بحث علمية رئيسة كان لها تأثير كبير على نظريات وطرق اكتساب اللغة الثانية غير أنني أشجع القارئ الراغب في الحصول على معلومات مستفيضة أكثر عن هذه التقاليد الثلاثة أن يرجع إلى الأعمال التالية: روم هاري وغرانت غيليت، راغنر رومتفيت، جيروم برونر، نوما ماركي، روبيرت أوشنر، دايان لارسين فريمان ومايكل لونغ، وأخيراً كيرت دانزيغر.

Rom Harre and Grant Gillett (1994), Ragnar Rommetveit (1968, 1974, 1987, 1992), Jerome Bruner (1996), Numa Markee (1994), Robert Ochsner (1979), Diane Larsen-Freeman and Michael Long (1993), and Kurt Danziger (1990).

ويمكن تقسيم هذه التقاليد الثلاثة من الناحية التاريخية على الشكل التالي:

١-السلوكية.

٢-الحاسوبية - المعرفية.

٣-الحوارية.

ويرتبط التقليد الثالث بالمسميات التالية: الخطابية (هاري وغيليت ١٩٩٤، التفسيرية (يونغ، ١٩٩٩، ماركي، ١٩٩٤ وأوشنر، ١٩٧٩) (Young, 1999)، التفسيرية - الجدلية (روميتفيت، ١٩٨٧) المعرفية الاجتماعية المعتمدة على الحوار والثقافية (روميتفيت، ١٩٩٢)، والثقافية (برونر، ١٩٩٦).

وعلى الرغم من أن مدارس التفكير الثلاث هذه مؤسسة بشكل جيد في الحقول العلمية الأخرى خصوصاً علم النفس، فإن حقل اكتساب اللغة الثانية، كما سنرى فيما بعد، ملتصق بشكل قوي بالتقليد الثاني الممثل بالتقليد المعرفي. أما التقليد الثالث – التقليد الحواري – فهو غير معروف جيداً لدى أغلب المهتمين بعلم اكتساب اللغة الثانية ويتم التعامل معه من قبل الباحثين في مجال اكتساب اللغة الثانية على أنه "غير علمي". ويحاول هذا الكتاب معالجة هذا الوضع من خلال محاولة إعطاء هذا التقليد فرصته. ويقدم الكتاب نظرة عامة وشاملة لتلك النظريات التي مهدّت الأساس لهذا التقليد حتى يكون بإمكان القارئ تقدير أصالة ومرونة وملاءمة المنهج الحواري لنظرية اكتساب اللغة الثانية وتطبيقها.

المدرسة السلوكية

سيطر التقليد الأول المتمثل بالمدرسة السلوكية على حقل اكتساب اللغة الثانية حتى نهاية الستينيات من القرن الماضي، وتمثلت أكثر تطبيقاته وضوحاً في التحليل التقابلي Contrastive Analysis وطريقة التدريس اللغوية السمعية Audiolingual Method (ارجع إلى الفصل الثالث). وقد كان التركيز في هذا التقليد منصباً على بيئة المتعلم الخارجية حيث كان الاعتقاد السائد في ذلك الحين أن تلك البيئة الخارجية تمثل أداة تحفيز وتنبيه لعمليات التعلم. وهكذا كان التعلم بحسب هذا التقليد عملية تكوين عادة، أي عملية إيجاد رابط بين المحفزات والاستجابات، وهذا الرابط، الذي يتم التعامل معه على أنه ذو أثر على عملية التعلم، يجب تحفيزه وملاحظته وتصحيحه وممارسته. وفي التقليد السلوكي، تم تجاهل عمليات المتعلم العقلية لعدم إمكانية ملاحظتها من الخارج، أو بمعنى آخر تم التعامل مع هذه العمليات على أنها شخصية

جداً، أي ذات طابع شخصي مختلف من فرد إلى آخر، وأنها "مخفية جداً" بحيث لا يمكن ملاحظتها وقياسها والتحقق منها. وتحت مظلة هذا المنهج القديم الذي فقد أهميته واعتباره في الوقت الحاضر تم استثناء تلك العمليات العقلية التي لم يكن بالإمكان تقييمها خارجياً من عمليات البحث والاستقصاء العلمي. وهكذا تم تقليل إمكانية وجود هذه العمليات.

وخلال فترة المدرسة السلوكية، كان يتم التأثير على السلوك بهدف الحصول على استجابات يتم تحليلها وترجمتها من قبل الباحثين بحسب أسئلة البحث وطرقه وكان يتم إيجاد علاقات إحصائية بين المثيرات (المحفزات) والاستجابات، وعُومِلت المحفزات "المثيرات" على أنها متغيرات مستقلة يتم اختيارها والتأثير عليها والتحكم بها من قبل الباحث فيما عُومِلت الاستجابات على كونها متغيرات قابلة للتغير.

وكان التعامل مع المشاركين في البحث يتم وكأنهم عناصر مختبر بحثي بحيث يقوم الباحث باستنباط سلوكيات الأشخاص المشاركين في البحث ومن ثم تفسيرها بحسب أفكاره وفرضياته. ومثل هذا الشيء كان يُفترض القيام به وأداؤه ضمن شروط مؤسسّةٍ علمياً وقائمةٍ على المنطق والاحتمال الإحصائي. أما أفكار المشاركين في البحث ومشاعرهم وتفسيراتهم للسلوك المُستخرج خلال التجربة فقد تم تجاهلها تماماً لأنها تُعامل، كما أشرنا من قبل، على أنها ذات طابع شخصي وبالتالي فهي غير علميه ولا يمكن الاعتماد عليها. ولم يكن الباحثون يثقون بهذه الأنواع من المعلومات ويرون أن لا معنى لها.

وعلى الرغم من أن المدرسة السلوكية ذهبت أدراج النسيان فإن طرقها التجريبية لا زالت على قيد الحياة، فكل من مدرستي التفكير السلوكية والمعرفية هما جزء لا

يتجزأ من الفلسفة العلمية الوضعية اليقينية[١] التجريبية[٢]، والتي تُفضِّل الطرق الكمية على ما عداها. وبهدف تحقيق متطلبات طرق البحث الكمية فإن الأفراد المشاركين في الدراسات البحثية، كما هو الحال مع العناصر في العلوم المعروفة على أنها العلوم الصلدة[٣]، يُعدّون "عناصر أو أجسام" يتحكم بها الباحثون، إذ بالإمكان التأثير على سلوكياتهم والتحكم بها وقياسها بطريقة معينة تخدم متطلبات تساؤلات البحث التي كان الباحث قد حدّدها مسبقاً. أو بمعنى أخر يمكن لمقاصد الباحث وطبيعة المهام التي يتعين على المشارك في البحث أداؤها خلال التجربة أن يكون لها تأثيرها على سلوك المشارك في البحث فيما يتم تجاهل الطبيعة الفردية لمقاصد المشاركين في البحث، أما المشاركون في البحث ممن يخرج أداؤهم عن الأنماط الطبيعية المحددة مسبقاً وممن لا يتوافق سلوكهم مع النمط السلوكي لباقي المجموعة فيتم إقصائهم من الدراسة وبالتالي فإنه يتم تقليل أهمية مساهمتهم في محاولتنا لفهم الكيفية التي يتطور من خلالها التفكير الإنساني.

التقليد المعرفي– الحاسوبي

يمكن تقسيم التقليد الثاني المتمثل في التقليد المعرفي إلى فرعين اثنين: أولهما هو الأقدم المتمثل بالتخيلي الاستنتاجي (ماركي، ١٩٩٤؛ هاري وغيليت، ١٩٩٤)، وثانيهما الحديث والمتمثل بمعالجة المعلومات والحاسوبي (برونر؛١٩٩٦ هاري

---

(١) الفلسفة التي تقول بأنه يمكن تحصيل المعرفة من خلال مراقبة الظواهر والوقائع فقط.

(٢) الفلسفة التي تقول بأنه لا يمكن الحصول على المعرفة إلا من خلال التجربة والملاحظة.

(٣) ذلك النوع من العلوم الذي يُنظر إليه على أنه أكثر دقة من أنواع العلوم الأخرى ويتسم باعتماده على المعطيات الكمية التجريبية.

وغيليت، ١٩٩٤). وهذا التقليد له جذوره القوية في الفلسفة الديكارتية[1] والتي يتجسد مبدؤها الرئيس في المقولة المعروفة "أنا أفكر لذا فأنا موجود". وبحسب العالم والفيلسوف رينيه ديكارت الذي عاش في القرن السادس عشر يوجد فصل بين العقل والجسم فيما يشبه الثنائية، أي أنه يوجد واقعان وعالمان: المحسوس "الجسد البشري" والذي يمكن ملاحظته وهناك العقلي "العقل البشري" الذي يتضمن الأفكار والمشاعر والعمليات العقلية، ولا يمكن تفحص هذا العالم العقلي من الخارج، ومنوط بالجسد البشري مسؤولية السلوك الظاهري الخارجي فيما العقل البشري مسؤول عن السلوك الداخلي.

وتتضمن الفلسفة الديكارتية معاملة العقل البشري على أنه أعلى مرتبة من الجسد البشري وهكذا فإنه يصبح المبحث الرئيس للدراسات العلمية. هنا يجدر التذكير بأن التقليد السلوكي قد تجاهل العمليات العقلية لعدم إمكانية تمحيصها من الخارج فيما أمكن التغلب على عدم إمكانية الفحص هذه من خلال تطبيق الطريقة التخيلية الاستنتاجية. وكما يشير هاريس وغيليت (١٩٩٤) فإن الطريقة التخيلية الاستنتاجية مكّنت الباحثين من التغلب على عائق عدم إمكانية الوصول إلى العمليات العقلية من خلال افتراض أن أي نظرية "ما هي إلا مجموعة من الفرضيات التي كان بإمكان الباحث استخدامها لاستنتاج جملة تصف قوانين محتمله كنتائج منطقية متى ما تم توفير التعريفات والأوصاف الخاصة بالأوضاع التي تم في ظلها إجراء الاختبار التجريبي ومن ثم حاول الباحث معرفة ما إذا كانت الاستنتاجات التي توصل إليها صحيحة أم خاطئة. ومتى ما كان استنتاج الباحث يشير إلى حدث مستقبلي، كان ذلك الاستنتاج توقعاً أما لو كان الاستنتاج يشير إلى حدث معروف مسبقاً، تم

(١) المنسوبة إلى رينيه ديكارت.

التعامل مع الافتراض على أنه تفسير لماهية ذلك الحدث موضع التساؤل" هاريس وغيليت (١٩٩٤ : ١٠). وتمثل فرضية مايكل لونغ (Michael Long, 1983a) الخاصة بالتعديل الحواري مثالاً واضحاً لهذه الطريقة المعروفة أيضاً بالطريقة الاستنتاجية المنطقية (ماركي، ١٩٩٤) (Markee, 1994). وقد توصل لونغ إلى نتيجته التي مفادها أن التعديل اللغوي والحواري يشجع على اكتساب اللغة الثانية من خلال تطبيق الطريقة التخيلية الاستنتاجية وهذه النتيجة يمكن شرحها من خلال الخطوات الثلاث التالية:

"بشكل مبسط، متى ما كان بالإمكان إثبات أن التعديلات اللغوية/الحوارية تشجع على فهم المُدخل. وأن المُدخل القابل للفهم يشجع على الاكتساب، عندها يمكن الاستدلال بشكل آمن على أن التعديلات تشجع على الاكتساب اللغوي. فلو أن (أ) تدل على التعديلات، و (ب) تدل على الفهم و (ج) تدل على اكتساب اللغة فإن الخلاصة ببساطة هي:

أ — ب

ب — ج

أ — ج

حيث تدل العلامة (—) على علاقة سببية." (لونغ، ١٩٣٩ : ١٨٩) (Long, 1983a, 189)

وتمثل نظرية "النحو الكلي" للعالم نعوم تشومسكي مثالاً آخر لتطبيق النظرية التخيلية الاستنتاجية في مجال اكتساب اللغة الثانية (يُرجى الرجوع إلى الفصل الثالث للحصول على معلومات أكثر) حيث ظهور وعمل المبادئ العامة وكذلك المُحدِّدات الخاصة باللغة مستمد من هذه الطريقة على وجه الخصوص.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه مقارنة بالتقليد السلوكي تُؤخذ تفسيرات المشاركين بالبحث للسلوك المدروس وكذلك استيعابهم للمفاهيم الذهنية المفحوصة بعين الاهتمام في التقليد المعرفي، وهذا واضح في استعمال ما يعرف بمهام الحكم على

"النحوية"[١] المستخدمة بشكل متكرر من قبل أنصار نظرية تشومسكي اللغوية على سبيل المثال إذ يُطلب من المشاركين في البحث أن يستخدموا حدسهم فيما يتعلق بما إذا كانت جملة يختارها الباحث صحيحة أو خاطئة نحوياً. كما أن الباحثين في حقل اكتساب اللغة الثانية المتركزة أبحاثهم على نظرية تشومسكي عن كُلّية النحو يستخدمون هذه المهام للتعرف على قدرة المتعلمين بلغة ثانية غير لغتهم الأم على الوصول إلى أداة اكتساب اللغة Language Acquisition Device "LAD" وكذلك لدراسة حدس المتحدثين الأصليين وغير الأصليين فيما يخص صحة جمل اللغة التي يتعلمونها نحوياً.

أما النسخة الأحدث من التقليد المعرفي- معالجة المعلومات - فتركز على الآلية المسؤولة عن معالجة المعلومات أو المعرفة. وفي هذه النسخة، يتم استخدام كنايات المُدخل، والمُخرج، والذاكرة قصيرة الأمد، والذاكرة طويلة الأمد، وتخزين المعلومات، و الحاصل، والحاوي، وجهاز الحاسوب. ويقوم هذا الفرع الحاسوبي من التقليد المعرفي بشكل أساسي على فرضية مفادها الاعتقاد بأن العمليات العقلية تحكمها القواعد. وهي فرضية تتبدى بشكل واضح في نسخ عديدة من نظرية "النحو الكلي" مثل نظرية النحو التوليدي التحويلي لتشومسكي (Chomsky, 1965; Radford, 1988) (رادفورد)، ونظرية الحكم والربط (هيغمان (Chomsky, 1981a; Haegman 1991) وكذلك البرنامج الأدنى (Chomsky, 1995).

وإذا كانت العمليات العقلية الإنسانية تحكمها القواعد فإن هناك حاجة إلى تطبيق هذه القواعد وتفعليها بطريقة ما. وحتى يتم تفعيل هذه القواعد، هناك حاجة إلى آلية شبيهة بجهاز ما كالحاسوب. وهكذا تتطلب العمليات العقلية المحكومة بالقواعد نظاماً مجسماً (الدماغ البشري) وبرنامجاً حاسوبياً (العقل البشري) حيث يتم استيعاب

(١) إذا كان تركيب لغوي معين ما صحيح نحوياً.

القواعد ومعالجتها وتخزينها. ويمثل نموذج فان باتن VanPatten لمعالجة المُدخل مثالاً على تطبيق نسخة المعالجة المعلوماتية من التقليد المعرفي في مجال اكتساب اللغة الثانية (يرجى الرجوع إلى الفصل الرابع للحصول على معلومات أكثر).

ويميل البعض من الباحثين إلى الدمج بين المنهج المعرفي والأنواع التجريبية للمنهجيات في صنف واحد يسمونه التقليد المعياري العلمي (أوشنر وماركي) (Ochsner 1979; Markee, 1994) ومقارنته بالتقليد التفسيري العلمي، وبحسب أوشنر (Ochsner, 1979) "يرجع هذا التقليد إلى بلاتو وهو كاتجاه بحثي يفترض وجود حقيقة واحدة مرتبة وقابلة للاكتشاف تتبع بشكل سببي قوانين ونواميس الطبيعة فيما يذهب علماء الاجتماع في هذا التقليد إلى الافتراض بوجود قوانين الطبيعة" (٥٣). والمعنى الحرفي لمصطلح التفسيري يعني "فن التفسير وإعطاء العلل" فيما يختص العلم المعياري بإعطاء التفسيرات والتوقعات، أما العلم التفسيري فيرتبط بفهم وتعليل الظواهر الطبيعية. وترتبط الطرق التجريبية الكمية القائمة على المنطق والاحتمال الإحصائي بالتقليد المعياري العلمي فيما ترتبط الطرق الكيفية النوعية بالتقليد التفسيري العلمي الذي يفترض وجود أكثر من واقع، "وضرورة تحليل وتفسير الأحداث الإنسانية على حسب نهاياتها"(كواتشر، ١٩٧٠ : ٥٤) (Coacher, 1970, 54).

وكما يشير ماركي (١٩٩٤)، ينتمي البحث في مجال اكتساب اللغة الثانية بشكل مبدئي إلى التقليد المعياري العلمي فالغالبية العظمى من الدراسات في حقل اكتساب اللغة الثانية ذات طبيعة استنتاجيه منطقية. وهي تتبع المبادئ التالية :

عالم واحد: هناك واقع "شرعي" واحد.

ترتيب واحد: لشرح هذا الواقع نقوم باستنتاج الأسباب من قوانين الطبيعة بما في ذلك قوانين الطبيعة البشرية.

طريقة واحدة: هناك طريقة بحث واحدة فُضلى تتمثل في التجربة المحكومة.

(اوشنر، ١٩٧٦ : ٦٥) (Ochsner, 1979, 65).

وكما هو الحال مع التقليد المعياري العلمي، يدعو التقليد المعرفي إلى البحث عن التعميم والتأثير المهم للإجراءات الإحصائية، وتماثل واتساق العمليات العقلية، وعمومية السلوكيات الذهنية المحكومة بالقواعد، ووجود واقع واحد وحقيقة واحدة لجميع البشر، وعقل جماعي وإنسان مثالي موجود في واقع خارجي متجانس يتحدث بصوت واحد، ومعالج معلومات هائل ومعقدٌ يُدير البرنامج بشكل منعزل.

هذا التقليد المعرفي والذي يتبناه معظم المرتبطين بحقل اكتساب اللغة الثانية والذي تسيطر عليه نظرية تشومسكي وهي نظرية "النحو الكلي" يعتمد بشكل كبير على مفهوم لغوي خاص بالمعنى مشابهٍ لمفهوم الإحساس عند فريجي (فريجي ١٩٦٠، وروميتفيت ١٩٧٤، وشيرشيا وماكونيل غينيت ١٩٩٢) (Frege 1960; Rommetveit 1974; Chierchia and McConnell-Ginet 1992). ويجادل قوتلوب فريجي (١٩٦٠) أنه إضافة إلى المرجع فإن هناك حاجة إلى الحس لتقديم تحليل دلالي لأي لغة بهدف كشف معنى أي جملة. ومرجع الجملة هو قيمتها الحقيقية المفهومة في مصطلح أرسطو التقليدي:

> "لكل جملة معنى، ولكنه ليس المعنى الذي يُستعمل كوسيلة يتم عن طريقها إدراك القوى المادية، إنما المعنى المتعارف عليه. ومع ذلك ليست كل جملة خبراً، إذ أن الخبر هو فقط ما يحتمل الصدق أو الكذب في ذاته. لذا فإن الدعاء بالرغم من أنه جملة إلا أنه ليس صحيحاً أو غير صحيح.
>
> دعنا هنا نستبعد كل الأنواع الأخرى للجملة باستثناء الخبر لأن الخبر هو الذي يهمنا في هذا البحث بينما البحث في الأنواع الأخرى ينتمي بالأحرى إلى دراسة الشعر والبلاغة." (مأخوذ من كتاب إيدغيل ١٩٢٨ (Edghill, 1928, 16b-17a).

ومن منظور المرجع، فإن معرفة معنى جملة ما يعني القدرة على تمييز الظروف التي تكون فيها الجملة خبراً صحيحاً والظروف التي تكون فيها غير صحيحة؛ غير أن

فريجي (١٩٦٠) يجادل بأن المعنى الحسي للجملة ضروري أيضاً للوصول إلى معناها. ويمكن اعتبار الحس كفكرة شيئاً معنوياً أو تصوراً مستقلاً عن الظروف. وقد توصل فريجي إلى وجود حاجة لتضمين الحس في أي تحليل للدلالات اللغوية القائمة على الحجج المنطقية المُبيّنة في المثال التالي المأخوذ من كتاب (شيرشيا وماكونيل غينيت، ١٩٩٢ : ٥٧-٥٩) (Chierchia & Meconnell Ginet, 1992: 57-59).

١ - نجمة الصباح هي نجمة المساء

من الناحية الفلكية، فإن نجمة الصباح ونجمة المساء هي نفس الكوكب- الزهرة - ولذلك فإن كلا النجمتين لهما نفس المرجع؛ ولو كان المعنى متعلقاً كلياً بالمرجع، لكان في الإمكان استبدال نجمة المساء بتعبيرها المشارك لها في المرجعية وربطها بنجمة الصباح مما يؤدي إلى ظهور الجملة التالية:

٢- نجمة الصباح هي نجمة الصباح

غير أننا نعلم أن الجملتين رقمي (١) و (٢) لا تحملان الرسالة نفسها على الرغم من أن مرجعهما واحد. ومن خلال استخدام مفهوم الحس يمكن أن نجد تفسيراً لحقيقة أن الجملة رقم (٢) لا تضيف معلومة جديدة لأنها تحتوي على نفس المرجع ونفس الحس أما الجملة رقم (١) فهي تثقيفية[1] لأنها وعلى الرغم من أنها تحمل نفس المرجع فإنها لا تحتوي الحس نفسه. هنا يجدر بنا تذكر أن مفهوم فريجي للحس مستمد لغوياً ومنطقياً ويمكن تفسيره أيضاً لغوياً ومنطقياً، وهو لا يعكس الجوانب الاجتماعية والتاريخية والثقافية والمؤسسية لعملية الإتيان بالمعنى فهو مُجرد من السياقات الاجتماعية.

وبشكل مخلص، فإن التقليد المعرفي، وهو أكثر التقاليد العلمية المتفق عليها في حقل اكتساب اللغة الثانية، يضع أهمية كبرى للعمليات الذهنية. ومن خلال تطبيق

---

(١) إخبارية.

الطريقة الاستنتاجية المنطقية التي تستند على التفكير الرياضي والمنطقي أمكن جعل العمليات الذهنية قابلة للفحص البشري. ويؤكد التقليد المعرفي العلمي على أهمية العمليات الذهنية الداخلية أكثر من العمليات الخارجية وبالتالي يقلب رأساً على عقب نمط المدرسة السلوكية التي كانت تركز على البيئة الخارجية وتتجاهل العمليات الداخلية. وفي ظل التقليد المعرفي، تتضاءل أهمية البيئة الخارجية لأن الناس يُولدون ولديهم استعداد فطري للتطور المعرفي. أي أننا نُولد ولدينا جهاز حاسوب مسؤول عن النقد المعرفي، ويلعب العالم الخارجي دور المحفز (الرجاء الرجوع للفصل الثالث)، كما لو كان أداة تشغيل برنامج حاسوبي. وتقتصر مسؤولية الفرد على تطوره المعرفي.

وتتبنى كل من المدرستين السلوكية والمعرفية ثنائية العقل البشري والجسم البشري التي نادت بها فلسفة ديكارت غير أنه وفيما تركز المدرسة السلوكية على الجسد (بيئة الفرد) كمصدر التطور المعرفي، تركز المدرسة المعرفية على العقل (عمليات الفرد الداخلية). إضافة إلى ذلك، تعتمد المدرستان سالفتا الذكر على طرق البحث العلمي الكمية[1] إلا أن المعرفيين[2] يميلون أكثر وبشكل واضح إلى استخدام طرق البحث العلمي المعتمدة على الحكم الشخصي من مثل مهام الحكم على القواعدية لدراسة كيفية عمل العمليات العقلية.

أما النسخة الحاسوبية (معالجة المعلومات) من المدرسة المعرفية فتقوم على افتراض وجود عمليات عقلية بشرية محكومة بالقواعد أو ما يعرف بالبرنامج الحاسوبي. هذه النسخة من المدرسة تميل إلى البحث عن شمولية وتناسق السلوكيات العقلية البشرية. كما أن هذه النسخة تتصور الإنسان وكأنه جهاز حاسوب ضخم مكتفي ذاتي

---

(١) المعتمدة على كميات وأرقام.

(٢) أصحاب المدرسة المعرفية.

ووحيد في هذا العالم المادي. إنها تخلق "صورة للإنسان على أنه بالضرورة غير اجتماعي لكنه أداة معالجة معلومات معقدة جداً" (روميتفيت، ١٩٩٢ : ١٩). مثل هذه النظرة للتطور العقلي البشري مع تجاهلها التام "للتفاعل الإجتماعي والتواصلي والنشاط الكلي موجه الأهداف كانت محل نقد شديد ورفض من قبل أصحاب التقليد الثالث". (روميتفيت، ١٩٧٨ : ٧٩) (Rommetveit, 1978, 79) .

التقليد الحواري

تقوم هذه المدرسة التي أنادي بها في هذا الكتاب على أعمال مجموعة من العلماء أمثال لويج ويتغينستين، وجورجن هابرماس، وجيروم برونر، و بيير بوردو، وراغنار روميتفيت، وروم هاريس، وغرانت غيليت، وليو فان لير.

Ludwig Wittgenstein, Jurgen Habermas, Jerome Bruner, Pierre Bourdieu, Ragnar Rommetveit, Rom Harre, Grant Gillett, Leo van Lier.

وقبل ذلك ليف فيجوتسكي وميخائيل باختين فقد أدت أعمال هؤلاء العلماء إلى تطوير منهج جديد يعالج أخطاء ثنائية الديكارتيه ويعيد إيجاد التوازن المناسب بين الواقع البشري الداخلي والخارجي "أي بين الجسم والعقل"، ويأخذ هذا المنهج بعين الاعتبار الدور الحيوي للسياقات والظروف الاجتماعية المحيطة، والفردية، والتعمد والخلفيات الثقافية – الاجتماعية والتاريخية والمؤسسية للفرد الذي يتم دراسة تطوره المعرفي. وهذا هو الإطار الذي يتحد في ظله الواقع الخارجي والداخلي من خلال قوة التوسيط الخاصة بأكثر أنظمة العلامات تعقيداً إلا وهي اللغة. وكما يشير فيجوتسكي في نظريته الخاصة بالعقل فإن خاصية عمل العقل البشري يمكن اكتشافها بدراسة بيئة الفرد ومن خلال ملاحظة الأنشطة العقلية واللغوية التي تم تعريض الفرد لها خلال سنين حياته.

هذا الإطار، وعلى عكس المدرسة المعرفية، يفترض وجود أكثر من واقع يتم تفسيره بشكل مختلف من قبل أفراد مختلفين. إنّ وجود أكثر من واقع واحد يمكن تعليله بحقيقة تعريض مختلف البشر طوال حياتهم إلى أوضاع اجتماعية وثقافية ومؤسسية متنوعة يكتسبون من خلالها أصواتاً متعددةً (أو أجناساً كلاميةً بحسب باختين)؛ ونتيجة لذلك، فإن الذاتية البينية (روميتفيت ١٩٧٨) والإنشاء المشترك للواقعات التي يتم التشارك فيها (جاكوبي وأوكس، ١٩٩٥) (Jacoby & Ochs, 1995) وتصيير التغاير اللغوي حوارياً (باختين، ١٩٨١-١٩٨٦) (Bakhtin, 1981-1986) تُعتبر خصائص مهمة من خصائص المنهج الحواري.

وضمن إطار هذا المنهج تصبح طرق البحث النوعية[1] في مرتبة أعلى من طرق البحث الكمية القائمة على الإحصاء حيث ينصب الاهتمام على دراسات الحالات الممتدة زمنياً والمذكرات والمجلات والكتابات الشخصية باعتبارها تقدم معلومات مهمة عن طبيعة التطور المعرفي للفرد، فالمنهج الحواري يركز على الخصوصيات لا على تعميم النتائج على الأفراد الممثلين بالتجربة. كما أن دراسة سلوك الفرد بدلاً من دراسة سلوك المجموعة المتجانسة والمُطبّعة يعتبر في هذا الإطار جوهر البحث العلمي وضمن هذا المنهج فإن سلوك الفرد "الخارج عن نمط المجموعة" لا يتم تجاهله وإلغاؤه بل يتم إعطاؤه اهتماماً خاصاً. كما أن أصوات الأفراد المشاركين في البحث المتنوعة مقاصدهم وأهدافهم وتواريخهم الشخصية لا تضيع بل يتم الإشارة إليها ويكون لها اليد العليا في التساؤل العلمي.

ويؤكد هذا التقليد على أهمية السياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخية والمؤسسية المحيطة في عملية تطور المعرفة البشرية فهو يسلط الضوء على

---

(١) الكيفية.

أهمية تطور المعرفة البشرية الخاصة بالتفاعل الاجتماعي في مختلف الأوساط الاجتماعية الثقافية والمؤسسية .

وكما أشرتُ من قبل، فإن لهذه النسخ المتعددة من هذا التقليد أصولها في نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية ونظرية باختين الخاصة بتصيير التغاير اللغوي حوارياً (راجع الفصل السابع لمعلومات أكثر). وعلى وجه الخصوص، فإن هذه النماذج والنسخ العديدة مدينة لنظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية، تلك النظرية المؤثرة فيما يتعلق بالأصل الاجتماعي للعقل البشري. ويتجسد تأثيرها القوي في حقيقة أنها لا تتعلق فقط "بالعقل ولا بعلاقات المحفز– الاستجابة المحددة من الخارج، فهي تتعلق بالجدل بين النفس الداخلية والنفس الخارجية وتحولات كل منهما إلى الآخر" (نيومان وآخرون، ١٩٨٩ : ٦٠) (Newman et al, 1989, 60).

إن نظرية فيجوتسكي الثقافية – الاجتماعية تضع الأساس الصلب للتقليد الثالث وهو ما يهب لمختلف أنواع الواقع والإدراك قوةً وصوتاً جديدين تم تجاهلهما أو التقليل من أهميتهما في المدرستين الأولين، كما أن التقليد الحواري يزودنا بإطار موحد لنظرية اكتساب اللغة الثانية والأبحاث المتعلقة بها وتدارسها وتقييمها ولذلك فإنه من الضروري الاهتمام به وأخذه على محمل الجد.

لقد قمتُ في هذا الفصل بتقديم معلومات عامة عن بعض الخصائص الرئيسة للتقاليد العلمية الثلاثة بهدف التهيئة لمناقشة نماذج ونظريات رئيسة في مجال اكتساب اللغة الثانية تنتمي بشكل واضح إلى التقليد المعرفي كما هو موضح في الفصول القادمة. كما أنه تم وضع الأساس الخاص بتطوير إطار جديد ينتمي إلى التقليد الحواري لنظرية اكتساب اللغة الثانية وكذلك ممارستها، وهو إطار قائم على نظريات فيجوتسكي وباختين. إنني أنادي بإيجاد نموذج جديد تكون فيه العلاقات الجدلية ما بين العمليات

الخارجية والداخلية محط التركيز والاهتمام في نظريات وتطبيقات علم اكتساب اللغة الثانية. مثل هذا النموذج الجديد لا يقلب الأشياء رأساً على عقب بل يركز على التفاعلات الجدلية التي تحوِّل العمليات الاجتماعية إلى عمليات إبداعية وفريدة من نوعها تقوم هي بدور تحويل الواقعات الاجتماعية من خلال الاعتراف بالمنبع الاجتماعي للعقل البشري.

obeikandl.com